العربية في جنوب الجزيرة العربية
حتى ظهور الإسلام
الحلقة الثالثة
٣- الحِمْيَرِيّة

أ.د. رفعت هزيم(*)

لقد انتهينا في البحثين السابقين إلى وجود ضربين من لغة النقوش العربية الجنوبية هما «نقوش المسند» و «كتابات الزَّبور».

غير أنّ هذه الكتابات لا تمثل إلا اللغة المكتوبة في اليمن القديم، أما لغة الخطاب آنذاك فلا نكاد نعرف عنها شيئاً، لأنّ ما نجده في كتب التراث من روايات عن«لغة حمير» أو «لغة أهل اليمن» يُرادُ به - كما سنرى - لهجات البلاد المكتوبة أو المحكيّة في المرحلة المتأخرة التي تبدأ أواخر العصر الجاهلي وتشمل العصر الإسلامي الأول، ذلك أنّ العربية الفصحى نشأت وتكوّنت في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وانتشرت في أرجاء المشرق العربي من جبال طوروس شمالاً إلى بحر العرب جنوباً، ثم ازدهرت في العصر الجاهلي - ممثلة في أدبه شعراً ونثراً - قبل نحو قرنين من ظهور الإسلام، فلمّا نزل القرآن

(*) رئيس قسم اللغات الشرقيّة بجامعة اليرموك (الأردن) سابقاً، ورئيس قسم اللغة العربيّة بجامعة تعز(اليمن) سابقاً.

الكريم بها أعلى شأنها وعزّز مكانتها لأنها صارت لغة الإسلام والمسلمين، فكانت لها الغلبة على جميع اللغات واللهجات في كل مصرٍ من أمصار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، مما جعل المتقدمين من اللغويين والمؤرّخين ينصرفون عن تلك النقوش إلى القرآن وعلومه وإلى الأدب الجاهلي وروايته، حتى بعُدَ العهدُ بها فلم يعودوا «يعرفونها معرفة يقينية وإنْ كانوا قد عرفوا معظم حروف الخط المسند؛ وكذلك بعض خصائص لغات النقوش»[(١)]، وكان «لا بدّ لضمان وحدة الدولة والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تُعطى اللهجاتُ العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها، فأهمل أمرُها ولمْ يُروَ عنها إلا القليل»[(٢)].

ولكن ذلك لا يعني أن الفصحى قضتْ على لهجات القبائل العربية لأنّ تلك اللهجات ظلتْ حيّةً، مما أدّى إلى نشوء ظاهرة الازدواج اللغوي التي ما تزال شائعة في أقطار وطننا العربي إلى يومنا هذا. فلمّا حلَّ القرن الثاني للهجرة وتوطّدتْ أركان الدولة بدأ العلماء بجمع اللغة والشِّعر وتدوينهما، فظهرت المعجمات وكتب اللغة والنحو والمجموعات الشعرية، ويلاحظ أنّ اللغويين رفضوا أخذ اللغة عن القبائل التي عاشت في مناطق متاخمة للحضر في بادية الشام أو العراق بسبب اختلاطهم بغير العرب، ولذا نظروا إلى اللهجات العربية في اليمن نظرة الشكّ لاختلاط أهله بأهل الحبشة وغيرهم، فكان جلُّ اهتمامهم باللهجات التي رأوا أنها قريبة في خصائصها من الفصحى كلهجات الحجاز ووسط الجزيرة. ولو عدنا إلى مؤلفات المتقدمين من اللغويين

(١) نامي، خليل، دراسات في اللغة العربية: ص٤٦، وقد يُستثنى الهمداني ولكن الحكم القاطع بشأن معرفته بلغة النقوش مرهون بالعثور على الجزء التاسع من كتابه «الإكليل».

(٢) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية: ص ٤٧.

والنَّحويين لوجدنا أنهم يذكرون ظواهر لغوية ونحوية وكذلك ألفاظاً ينسبونها إلى لهجات قبائل وأماكن شتى، ومنها: حمير واليمن؛ حيث نجد العبارة المألوفة «بلغة اليمن» أو «بلغة حمير» أو ما شابهها، فهل هذان المصطلحان مترادفان؟ وما المراد بهما؟ وما الصلة بينهما وبين الفصحى و لغة النقوش؟.

لعل أقدم إشارةٍ إلى الحميرية ذلك القول المنسوب إلى أبي عمرو بن العلاء(ت ١٥٤هـ): «ما لسانُ حمير وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»(٣)، ثم نقرأ لابن جنّي (ت٣٩٢هـ) كلاماً يبدو كأنه إيضاح له، إذ يذكر «أنّ لغة حمير وما شابهها مختلفة تماماً عن لهجات ربيعة ومضر»(٤)، في حين يروي صاحبُ اللسان أنهم اشتقوا منه فعلاً: «وحَمَّرَ الرَّجلُ: تكلم بكلام حمير، ولهم ألفاظ ولغات تخالف لغات سائر العرب»(٥).

ولو عدنا إلى كتب التراث العربيِّ لوجدنا أنّ مصطلح «الحِمْيريّة» يرد فيها وصفاً لمجموعةٍ من الظواهر اللغوية والصوتية؛ أو لبعض الظواهر الصرفية والنحوية؛ أو لطائفة من الألفاظ، وهذا بيانها:

أولاً – الظواهر اللغوية والصوتية، وهي:

أ- **الطمطمانية**: وهي إبدال اللام في أداة التعريف ميماً، ومن شواهدها ما يُروى عن النبيِّ ﷺ أنه أجاب سائلاً من اليمن بقوله: «ليس من أمبرِّ أمصيامُ في أمسفر»(٦)، ورواية ابن دريد: «سمعتُ رجلاً من اليمن يقول: أمْ شيخُ أمْ كُبَّارُ ضربَ رأسه بالعَصَو؛ أي بالعصا»، وقول ذي الكلاع الحميريِّ: «عليكَ

---

(٣) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء: ١/ ١١.

(٤) ابن جنّي، الخصائص: ١/ ٣٩٢.

(٥) ابن منظور، لسان العرب (حمر).

(٦) ولكن الرواية في صحيحي البخاري ومسلم هي: البرّ والصّيام والسّفر!

أمرأيُ وعلينا أمفِعالُ»، وقول سيف بن ذي يزن حين قاتل الأحباش:

قد علمتْ ذاتُ امْنِطَعْ أني إذا امْمَـوْتُ كَنَـعْ

أضربـهم بـذا امْـقَلَعْ لا أتـوقّى بامْـجَزَعْ[٧]

ورواية اللسان: «قال شمر: سمعتُ حميرية فصيحة سألتها عن بلادها، فقالت: النخلُ قُل، ولكن عيشتنا امْقمحُ امْفرسِكُ امْعِنَبُ امْحماطُ طُوب، أي: طيِّب، فقلتُ لها: ما الفرسك؟ فقالت: امْتينُ عندكم»[٨]. غير أنّ أبا العباس ثعلباً ذكر أنها لغة مشهورة للأزد، كما روت بعضُ المصادر شواهد لشعراء من طيِّئ، ومنها قول بُجَيْر بن عَنَمة الطائيِّ:

وإنّ مـولايَ ذو يعـاتبني لا إحْنَـةٌ عنـده ولا جَـرَمـهْ

ينـصُرُني منـكَ غـيرَ مُعتَـذِرٍ يرمي ورائيَ بامْسَهم وامْسَلمَه[٩]

وما تزال هذه الظاهرة شائعة اليوم في العاميّة في بعض مناطق اليمن[١٠]، ومن الطريف أنْ نجد لها شاهداً آخر في تحوّل كلمة «البارحة» إلى «امبارح» في لهجات مصر وبلاد الشام. وثمة شواهد لإبدال اللام في أداة التعريف نوناً سيرد ذكرها لاحقاً.

والتعليل الصوتيّ لها هو «أنّ اللام والميم من فصيلة الأصوات المتوسطة أو المائعة التي تشمل كذلك النون والراء، وهذه الأصوات يُبدلُ بعضها من بعض كثيراً في اللغات السامية»[١١].

(٧) اللسان (قمع).

(٨) اللسان(فرسك)، ويلاحظ أن أداة التعريف في كلمة «النّخل» هنا هي «ال»!

(٩) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب ١/ ٤٨-٤٩، و ابن دريد، جمهرة اللغة: ١/ ٢٧٤-٢٧٥، ومجالس ثعلب، و اللسان:(قمع) و (سلم).

(١٠) انظر: دراسات لنامي ص٤٧.

(١١) عبد التوّاب، رمضان، فصول في فقه العربية ص١٢٩-١٣٠.

ب- **الوتم**: وهو قلب السين تاءً، كقول علباء بن أرقم اليشكريِّ:

يـــا قَـــبَّحَ اللهُ بَنـــي الـــسِّعْلاةِ   عمـــرو بـــنَ يَرْبـــوعٍ شِرارَ النّـــاتِ
لَيْـــسُوا أعِفَّـــاءَ ولا أكْيـــاتِ(١٢)

وقال صاحب اللسان: «لَبَاتِ: لا بأس في لغة حمير؛ قال شاعرهم:

تنـــادَوا عنـــد غَـــدْرهِمُ لبـــاتِ   وقـدْ بَـرَدَتْ مَعَـاذِرُ ذي رُعَـيْنِ(١٣)

والتعليل الصوتي لهذا القلب هو أنّ السين والتاء «يتفقان في المخرج؛ وهو الأسنان واللثة، كما يتفقان في الهمس؛ وهو عدم اهتزاز الأوتار الصوتية، ويتفقان أخيراً في الترقيق، والفرق الوحيد بينهما هو أنّ السين رخوة احتكاكية والتاء شديدة انفجارية»(١٤).

ج - **الشَّنشنة**: وهي جعل الكاف شيناً مطلقاً، وقد رُوِيَ عن بعض اليمنيين قوله في عَرفة: «لبَّيْشَ اللهم لبَّيْش»(١٥). ويبدو أنّ الأصل في هذا النطق - الذي ما يزال شائعاً اليوم في لهجات المناطق الريفيّة في اليمن والعراق وبلاد الشام - هو تحوّل الكاف إلى صوتٍ مزدوج على النّحو الذي نسمعه في كلمة children في الإنكليزية، ثم انحلال هذا الصوت المزدوج إلى أحد الصوتين المكوّنين له؛ وهو هنا صوت الشين(١٦).

د- **الاستنطاء**: وهو نطق العين نوناً في فعل «أعطى» ومشتقاته فحسب، ومن

(١٢) ابن السكيت، القلب والإبدال ص ٤٢.

(١٣) اللسان (لبت) و (بأس)، ولكنه ذكر - في(لبب) - صيغة «لبابِ» أيضاً.

(١٤) فصول: ص ١٥١-١٥٢.

(١٥) السيوطي، المزهر ١/ ٢٢٢. غير أنّ ابن عبد ربّه جعلها لتغلب، انظر: العقد الفريد: ٢/ ٤٧٥ و ٣/ ٣٢٠.

(١٦) انظر: فصول: ص١٢٧ و١٤٨.

شواهده القراءة القرآنية: «إنا أنطيناك الكوثر»، وقول النبيِّ ﷺ: «اليدُ المنطية خيرٌ من اليد السّفلى»، وقوله: «لا مانع لما أنطيت ولا منطي لما منعت»، وقوله: «وأنّ مال الله مسؤول ومنطى»، وقوله في بعض كتبه: «هذا ما أنطى رسولُ الله» و: «وأنطوا الثبجة»[١٧]. وقد نقل صاحب اللسان عن ابن الأعرابي «أنّ النبيَّ ﷺ شرّفَ هذه اللغة وهي حميرية»، ونقل عن أبي العباس ثعلب هذا البيت:

مِن المنطياتِ الموكبُ المعْجُ بعدما يرى في فروع المقلتين نُضوبُ[١٨]

كما نُسبتْ هذه الظاهرة إلى سعد بن بكرٍ وهُذيل والأزد وقيس والأنصار[١٩] التي يجعلها النسّابون - عدا هذيل - من أصولٍ يمنية. وليس لهذه النطق - الذي ما يزال شائعاً اليوم في لهجات بعض المناطق في اليمن والعراق ومصر وبلاد الشام - تعليل صوتي بسبب تباعد العين والنون في المخرج والصفة، مما أدّى إلى الاختلاف في تفسير نشوئها، فقيل إنّ «أنطى» منحوت من فعل «أعطى» وفعلَيْ nâtan في العبرية و: nettel في السريانية بالدلالة نفسها، وقيل إنه ذو صلةٍ بفعل «أمطى» المشتق من «المطيّة» أو بفعل nâtan في العبرية، وقيل إنّ أصله هو «آتى» ثم ضعّف فصار «أتّى» بتشديد التاء ثم فكّ الإدغام فأبدلت إحدى التاءين نوناً[٢٠].

ثانياً - الظواهر الصرفية والنحوية: وهي:

أ - استعمال الكاف ضميراً متصلاً بالفعل الماضي للمتكلم والمخاطب (أيْ كما في الجعزيّة الحبشيّة)[٢١]: وله شواهد سيأتي ذكرها، وكذلك هذه الأرجوزة

(١٧) انظر: تيمور، أحمد، لهجات العرب ص ١١٣-١١٧، و: فصول: ص١٢٠-١٢٣.

(١٨) اللسان: (نطا).

(١٩) انظر: المزهر: ١/ ٢٢٢.

(٢٠) انظر الأوجه الثلاثة في: فصول ص١٢٢-١٢٣، وقارن بـ: في اللهجات لأنيس: ص١٤٢.

(٢١) انظر: Dillmann, p.201.

التي قيل إنّ جنود الحجَّاج من أهل الشام كانوا ينشدونها وهم يرمون البيت الحرام في أثناء حصارهم عبد الله بن الزبير:

يابن الزبير طال ما عَصَيْكا وطال ما عنَّيتنا إليكا

لتحزننَّ بالذي أتيْكا لنَضربَنْ بسيفنا قَفَيْكا(٢٢)

ب – استعمال صيغة «فِعَّال» – بكسر الفاء وتشديد العين – مصدراً لوزن «فَعَّلَ» بتشديد العين: وقد تحدّث الفرّاء عن هذه الظاهرة فقال: «لغة يمنيّة فصيحة؛ يقولون: كذَّبت كِذَّاباً، و: خرَّقت القميصَ خِرَّاقا، وكُلُّ فَعَّلتُ فمصدره فِعَّال في لغتهم مشدَّد»(٢٣). وقد ورد هذا الاستعمال – الذي ما يزال حيّاً في اليمن حتى اليوم(٢٤) – في آيتين من القرآن الكريم؛ هما قوله تعالى «وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً... لا يسْمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً» (النَّبأ ٢٨، ٣٥)(٢٥).

ج – استعمال صيغتي «فُعال» – بضم الفاء وتخفيف العين – و«فُعّال» – بضم الفاء وتشديد العين – صفتين من الثلاثي تناظران صيغة «فَعِيْل»: فقد ذكر ابن دريد في كتابه «الاشتقاق» – وهو يتحدّث عن قبائل قحطان – رجلاً يُدعى

---

(٢٢) للأرجوزة عدّة روايات، إذ وردت الأبيات الأربعة في: أنساب الأشراف للبلاذري ٥/ ٣٦٢، وحلّ البيت الرابع محلّ البيت الثالث في رواية أبي زيد الأنصاري الذي نسب الأرجوزة لرجلٍ من حمير في: النوادر في اللغة ص ١٠٥، في حين رويَ البيت الثاني هكذا: «وطالما دعوكنا إليكا» في: الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١/ ١٤١، ويرى نولدكه الذي ناقش هذه الظاهرة أنّ «عنَّيتنا» مُتَحوِلٌ من «عنَّيكنا»، انظر: Nöldeke, p.21. وقارن بـ Rabin, p.48، و: دراسات لنامي ص ٥١-٥٢.

(٢٣) الفرّاء، معاني القرآن: ٣/ ٢٢٩.

(٢٤) وعلَّق مطهَّر الإرياني على ذلك قائلاً: «ولا يعرفُ عامةُ النّاس غير هذا»: المعجم اليمني ص ٤٢١.

(٢٥) قال الفرّاء: «خففها الإمامُ علي عليه السّلام وثقَّلها عاصم والأعمش وأهل المدينة»، معاني القرآن: ٣/ ٢٢٩.

عمّاراً ذا كُبار، وقال شارحاً: أي الكبير بلغة اليمن، وهو الكُبَّار أيضاً، وكرَّر ذلك في «الجمهرة»، ثمّ قال: «وسمعتُ رجلاً يقول: ام شيخ ام كبار ضرب رأسه بالعصو؛ أي بالعصا»(٢٦). وقد وردت الصيغة المشدّدة في قوله تعالى: «ومكروا مكراً كُبَّارا»(نوح ٢٢)، والمخففة في قوله عزَّ وجلَّ: «إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب»(ص ٥)، وقرأها بعضهم بتشديد الجيم. وادّعى بعض المتقدمين أنّ هاتين الصيغتين من صيغ المبالغة (٢٧)، غير أن سيبويه والفرّاء لم يشيرا إلى ذلك البتة، فقد بين الفرّاء أنّ العرب تقول: «هذا رجلٌ كريمٌ وكُرامٌ وكُرّامٌ، والمعنى كله واحد، مثل قوله تعالى: ومكروا مكراً كُبَّارًا، معناه: كبيراً»(٢٨).

د - إلزام المثنّى الألف رفعاً ونصباً وجرّاً: وقد نسبها الهمدانيُّ إلى بعض همدان، فقال: «وبلد سفيان بن أرحب فصحاء إلا في مثل قولهم:... قيِّدْ بعيراك ورأيتُ أخواك»(٢٩). ولكن هذه الظاهرة تنسب كذلك إلى غير هؤلاء، فقد جعلها النّحاة واللغويون لغة لبني الحارث وخثعم وزبيد وكنانة، ورووا شواهد شعرية لها، كقول أحدهم:

إنَّ أباها وأبا أباها ... قد بلغا في المجد غايتاها

وقول الآخر:

أعرفُ منها الأنفَ والعينانا ... ومنخرانِ أشبها ظبْيانا(٣٠)

---

(٢٦) ابن دريد، الجمهرة: ١/ ٢٧٤-٢٧٥.

(٢٧) وتابعهم في ذلك كثير من المحْدثين، انظر مثلاً: الرّاجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص ١٧١.

(٢٨) معاني القرآن: ٢/ ٣٩٨ و: ٣/ ١٨٩.

(٢٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب: ص ١٣٥، وانظر: الهمداني، الإكليل: ٨/ ٩٣.

(٣٠) انظر: شرح ابن عقيل: ١/ ٥٠-٥٢، و: المالقي، رصف المباني: ص ٢٤، وانظر تفسيراً لهذه الظاهرة في: في اللهجات لأنيس: ص١٤٣-١٤٤.

وحملوا عليها القراءة القرآنية: «إنّ هذان لساحران»(طه ٦٣)[٣١]، كما نسبوا إلى النبيِّ ﷺ قوله: «لا وتران في ليلة»، وقوله: «ماصنعَ أبا جهل؟».

هـ- شيوع صيغة «الأَفْعول» – بفتح الهمزة وسكون الفاء – في أسماء القبائل: يقول الهمداني: «وكثير من قبائل حمير تأتي على الأَفْعول: الأيفوع والأيزون والأوسون والأحروث، ومثله الأهنون من الأزد»[٣٢]. وقد ذكر إسماعيل الأكوع – وهو حُجّة في تراث اليمن وفي لهجاته المعاصرة – أنّ اليمنيين انفردوا باستعمال هذه الصيغة منذ زمنٍ قديم، وأورد لها نيّفاً ومئتي شاهدٍ بعضها أسماء أشخاصٍ أو بلدان[٣٣].

ثالثاً - الألفاظ الحميرية أو اليمانية:

وهي طائفة من الكلمات التي يصفونها بأنها حميرية مرَّةً أو يمانية مرَّةً أخرى، أو بأنها حميرية يمانية معاً[٣٤]. وقد تناقلها علماء العربية جيلاً بعد جيل دون أنْ يوردوا – إلا فيما ندر – شواهد توثقها وتؤكد استعمالها، ولمْ يستطع المتأخرون منهم – لعدم اطلاعهم على الكتابات والنقوش في اليمن القديم – أن يضيفوا إلى أقوال المتقدمين شيئاً يستحق الذكر لإثبات صحّة ادّعائهم أو لإيضاح تلك الألفاظ، فاكتفوا بجمع ما تُفرَّق منها في مؤلفات القدامى[٣٥]،

(٣١) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ١/ ٣٧-٣٨، و: اللسان (أ نن).

(٣٢) الهمداني، الإكليل: ٢/ ٣٩٦.

(٣٣) انظر: الأكوع، الأفعول، في: الإكليل، العدد الثاني، صنعاء ١٩٨٠، ص ٩-٣٠. وقد نُشرت المقالة ثانية في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦١ (١٩٨٦)، ص ٣٠٨-٣٤٧.

(٣٤) في اللسان(بلل): «ويقال: بِلٌّ: مباحٌ مطلق، يمانية حميرية». وقد لاحظ (الغول) اختلافاً بين ابن دريد والآخرين في بعض الألفاظ، فهي عنده يمنيّة في حين أنّها عندهم حميريّة، انظر: Ghul, p.18.

(٣٥) انظر مثلاً: تأثر العربية باللغات اليمنيّة القديمة لهاشم الطعان (بغداد ١٩٦٨) و: دراسة =

غير أنّ محمود الغول - الذي كان واحداً من كبار المتخصصين في حضارة الجزيرة العربية ونقوشها ولهجاتها - اختار أن يدرس في أطروحة الدكتوراه - التي أجيزت عام ١٩٦٣ - الألفاظ التي توصف في المصادر العربية بأنها حميرية أو يمانية - وبعضها من ألفاظ القرآن الكريم - وأن يقارنها من حيث أصولها واشتقاقها ودلالاتها بنظائرها المحتملة في النقوش العربية الجنوبية وفي العربية الفصحى. وقد صنّف تلك الألفاظ - وعدَّتها عنده واحدة وثلاثون حميرية وثلاثٌ وأربعون يمانية - في ثلاث مجموعات: إحداها للألفاظ التي لها نظائر في النقوش العربية الجنوبية ولكنها تخالفها في الاشتقاق والدلالة (نحو: مَسْنون = منتن و: مقاليد = مفاتيح و: وَبيل = شديد: من الحميرية، و: تَصْريب = شُرْبُ اللبن و: الصّائد= السّاق و: العَقَر = الأرض التي يسقيها المطر: من اليمانية)؛ والثانية للألفاظ الموافقة لنظائرها في النقوش من حيث الاشتقاق والدلالة (نحو: صَرَبَ الزَّرعَ = حَصَده و: حِنْج = مِثل و: هَجَر = قرية: من الحميرية، و: بَلَق= رخام و: رَيْم = دَرَجَة و: عَيْش = طعام: من اليمانية)، والثالثة للألفاظ التي توافق نظائرها في النقوش بعض الموافقة في الدلالة (نحو: مَرَضٌ = زنا، و: رابية = شديدة و: زَعمٌ = باطل: من الحميرية)(٣٦). ثم أخذ مؤلفو المعجم السبئيِّ - الذي صدر عام ١٩٨٢ - بهذا المنهج، فأوردوا ما يقابل ألفاظ النقوش من ألفاظٍ في الفصحى وإنْ كان بعضها مهجوراً أو شبه مهجور «وكذلك بعض الألفاظ اليمنية الدّارجة اليوم إذا كانت اللفظة الفصحى أو اليمنية العامية هي عين الكلمة السبئية اشتقاقاً أو لفظاً، وكان ذلك يعين في

= اللهجات العربية القديمة لداود سلوم (بغداد ١٩٧٥) و: دلالة الألفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية لهادي عطيّة الهلالي (صنعاء ١٩٨٨).

(٣٦) Ghul, p.83–270

تحديد معنى الكلمة السبئية تحديداً واضحاً»، ولكنهم لم يحصوا تلك الألفاظ إحصاء دقيقاً لأنهم أملوا في «أنْ يتسع الاهتمام بالألفاظ اليمنيّة العاميّة لاسيّما على يد النبهاء من علماء اليمن الذين يستطيعون ضبط المعاني بالنشأة والخبرة والمشاهدة، ويحسنون بعد ذلك المقارنة والمطابقة»[٣٧]. وقد تحقق هذا الأمل على يد اثنين من الباحثين اليمنيين، أحدهما: إبراهيم الصلوي الذي درس في أطروحة الدكتوراه – المجازة عام ١٩٨٧ – الألفاظ اليمنيّة والحميرية في مؤلفات الهمداني ونشوان الحميري، وجمع شواهد لها من النقوش والفصحى والعامية اليمنيّة، والآخر: مطهر علي الإرياني في كتاب مفصَّل نشره عام ١٩٩٦ بعنوان «المعجم اليمنيّ في اللغة والتراث، حول مفردات خاصة من اللهجات اليمنيّة»، وأغناه بالشواهد والشروح والتعليقات التي تدلّ على إحاطة مؤلفه علماً بالنقوش وبكتب التراث وبالعاميّة في اليمن.

بيد أنّ اللغويين يعلمون أنّ المفردات لا تحدِّد وحدها هوية اللغة وانتماءها إلى إحدى الأسر اللغوية، فلو كان الأمر كذلك لعُدَّت الفارسيَّةُ التي تزخر بالألفاظ العربية – فضلاً عن اتخاذها الخطَّ العربيَّ في الكتابة – لهجةً من لهجات العربية الفصحى، ولضُمَّتْ إلى أسرة اللغات الساميّة، ولكنّ المعتمد في هذه المسألة هو أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والنّحوية كما تبيّنها النّصوص والشواهد. وقد أخبرنا الهمداني أنّه خصص الجزء التاسع كله من كتابه «الإكليل» للكلام «في أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند»، إلا أنّ هذا الجزء هو أحد الأجزاء الستة المفقودة من الكتاب، وبالرغم من ذلك فإننا نجد – لحسن الحظ – في الأجزاء التي وصلت إلينا من الإكليل وفي مصادر أخرى نصوصاً بهذا اللسان تكفي لتعيين هويته.

---

(٣٧) المعجم السبئيّ: ص١١ من المقدمة العربية.

ولنبدأ بهذه المقدّمة الهامة لـ «باب القبوريات» من الجزء الثامن التي أراد الهمداني بها أنْ تعرّف القارىء بمضمون الباب، قال: «عن الكلبيِّ وغيره مما وجد بالعربية ومما ترجم ونقل إليها من الحميرية. قال الهمداني: أكثر ما وجد في المساند القبورية بكلام الحميرية، وإنّا لمّا جعلنا الجزء التاسع مقصوراً على الكلام بالحميرية رأينا ذكر ما لم يختلف فيما كان من القبور بالحميري، ونضمنه إياه، ونقدّم منه ما كان عربيًّا من جنس هذا الجزء»[٣٨] ويُفهم من كلامه هذا أنّ الحميرية ضربان: أحدهما رواه الهمداني في الجزء التاسع المفقود، وهو منقول «باللسان الحميري وحروف المسند»؛ والآخر يرويه هنا وهو مترجم ومنقول من الحميرية إلى العربية. فأمّا الضرب الأول فإنّ معرفته مرهونة بالعثور على ذلك الجزء من الإكليل أو على مصادر أخرى تتضمنه، ولكننا سنجتهد في استنتاج المراد به من نصوص قليلة أوردها الهمداني في الأجزاء التي وصلت إلينا من كتابه، فقد روى مسنداً من «ناعط» نصّه: (أوسلة رفشان وبنوه بنو همدان، حي عثتر يطاع ويارم أقوال شعبين سعى سلبان دحاشدم وبأبهم تألب ريام)، وروى مسنداً ثانياً من صنعاء فحواه: (علهان ونهفان ابنا بتع بن همدان حصن وقصر حدقان)، وروى مسنداً ثالثاً من «ريدة» قراءته: (نمران وعلهان وسوران آلهة همدان)[٣٩]. وبالرّغم مما لحق بهذه النصوص من تصحيف وتحريف فلا شكّ أنها شبيهة من حيث أسلوبها ومضمونها ولغتها بنصوص النقوش، فإذا كان الجزء المفقود يشتمل على هذا النمط من المساند فذلك يعني أنه خاص بلغة النقوش التي تختلف – كما سنرى – عن لغة حمير كما نقلها لنا المتقدمون ومنهم الهمداني نفسه[٤٠]. وأمّا

(٣٨) الإكليل: ٨/ ١٢٤.

(٣٩) انظر هذه النصوص ونصوصاً أخرى في: الإكليل ٨/ ١٢٢ و: ١٠/ ١٨، ١١١.

(٤٠) قارن بـ Al-Selwi, p.5.

نصوص الضرب الثاني فنجدها في سياق الأخبار المروية عن الأخباريين كعبيد بن شرية ووهب بن منبه وهشام ابن الكلبي زاعمين أنها مكتوبة بالخط المسند أو بالحميرية في ألواح أو في مساند. ولا شكّ في أنّ معظم تلك الأخبار منحول موضوع في العصر الأموي حينما اشتد الصراع بين القحطانية والعدنانية على النفوذ والسلطان، فسعى كلا الفريقين لإثبات تفوّقه على منافسيه قبل الإسلام وبعده(٤١)، وهكذا جعل الأخباريون «بعض التبابعة أنبياء وفاتحين بلغت فتوحاتهم الصين في المشرق وروما في المغرب... وظهر أجداد أهل اليمن أحسن من أجداد قريش وأهل مكة، فقد كانوا مؤمنين موحّدين كسوا البيت الحرام، وكانوا هم أول من كساه، وعُنوا بالبيت إذ عمّروه مراراً وقدروا مكانته قبل الإسلام بزمان طويل»(٤٢)، و«لجأ اليمنيون منذ البداية إلى القصص القرآني لإضافة مفاخر جديدة إلى مفاخر أسلافهم، فكانت قصص ذي القرنين وبلقيس وتبَّع التي تولد عنها ملاحم شعرية ونثرية طويلة...، وقد استُدعي في هذا الصراع واستُنفِرَ له كلُّ الأنبياء الذين حفلت بهم الكتبُ المقدَّسة، بل وغيرهم ممن لا وجود لهم هناك، وانْتُحلتْ أمجادُ الفاتحين – وخاصة الإسكندر المقدوني – ونسبتْ إلى أشخاصٍ حقيقيين أو وهميين في الجانبين، وجُمِع من ذلك كله تاريخٌ أو سيرة كما أطلق عليه في مصادر الأخباريين، أو قلْ أعيدتْ صياغة ما تخلفَ في الأذهان بعد حشوها بهذه الإضافات»(٤٣). ويستطيع المرء تصنيف تلك النصوص في مجموعتين سنبيّن أوجه الخلاف بينهما بعد أنْ نعرض أمثلة لكلتيهما:

---

(٤١) نقل الأصفهاني عن الأصمعي أنّ الشاعر ابن مفرغ الحميري «زعم أنّه من حمير، ووضع سيرة تبَّع وأشعاره»: الأغاني: ١٨/ ٢٥٥.

(٤٢) علي، جواد، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢/ ٥١٥.

(٤٣) بافقيه، محمَّد عبد القادر، في العربية السعيدة: ٢/ ٢١٧،٣٥.

١ - المجموعة الأولى:

أ- زعموا أنهم وجدوا في قبرٍ زمن ولاية أخي الحجَّاج على اليمن جمجمتي امرأتين ومعهما لوح مكتوب فيه بالمسند «أنا مي ابنة تبَّع وهذه أختي رضوى، متنا لا نشرك بالله شيئاً، ونشهد أن لاإله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله».

ب- ووجدوا في قبر آخر سريراً من ذهبٍ عليه رجلٌ ميت ومعه لوح من الذهب مكتوب فيه بالمسند «باسمك اللهم رب حمير، أنا حسّان القَيل إذ لا قيل إلا الله، هلكتُ زمان خرهيد وماهيد، وهلك فينا اثنا عشر ألف قيل فكنت آخرهم قيلاً، فأتيت ذات الشعبين ليجيرني من الموت فأجارني».

ج- ووجدوا تابوتاً فيه لوح مكتوب فيه «هذا قبر تبَّع، مات على الحنيفية يشهد أن لا إله إلا الله».

د- ودخلوا مدفناً لملوك حمير بحضرموت «فإذا سرير عليه شيخ أصلع، وعند رأسه كتاب بالحميرية: (أنا أبو مالك عميكرب بن ملككرب، عُمرتُ عشرة أحقاب، وأدركتُ الملك بالأسباب، وكنتُ الطالب الغلاب. ودعانا شُعيب الحضوري إلى الإيمان فكذبناه، وقام فينا داعياً فعصيناه، فدعا علينا ربَّه فجاءتنا ريحٌ مضرّةٌ وريحها أكره من السمام، فجعلتْ تشتعل في مناخرنا وأدمغتنا، فحسب الرَّجل منا أن يأتي مضجعه الذي يموت فيه فصرنا في ساعةٍ رفاتاً حفاةً).

هـ- وقالوا إنّ الملك ناشر النِّعَم «سار بنفسه غازياً نحو المغرب فدوَّخه ووطئه حتى بلغ وادي الرمل... وأمر رجلاً أن يعبر الوادي بأصحابه فلم يرجع منهم أحد، فأمر بصنمٍ من نحاس فنصب على صخرةٍ وكتب على صدره بكتاب المسند وهو كتاب الحميري ابتدعته حمير لأنه لا يكتبه غيرهم، والذي كتبوه هو: صنع هذا الصَّنم الملكُ الحميريّ ناشر النِّعم اليعفريّ، ليس وراء هذا

مذهب، فلا يتكلف أحدٌ المضيَّ متغلغلاً فيعطب»(٤٤).

فهذا غيضٌ من فيضٍ من الأخبار والروايات التي رواها الهمداني وغيره، وما يهمنا هنا أنّ هذه المجموعة من النصوص المكتوبة - كما قالوا - بالحميرية أو بالمسند تخلو من جميع الظواهر اللغوية والنحوية المنسوبة لأهل اليمن أو لحمير خُلُوًّا تامًّا، ولا تختلف عن نصوص الفصحى البتَّة، زد على ذلك أنّ القصائد أو الأبيات المقترنة بها توافق الشعر العربي من حيث الأوزان والأساليب موافقة تامة، مما يؤكد أنّ الأخباريين أَلَّفوها في حقبة الصراع والتنافس على الحكم والسلطان.

٢- المجموعة الثانية:

وهي التي تشمل النصوص التي لا ينطبق عليها ما ذكرنا، ولذا تحتاج إلى شروحٍ وتعليقات، وهذه أمثلة منها:

أ- روى الهمداني أنه «وُجد مسندٌ بحقل قتاب في قبرٍ:(أنا شمعة بنت ذي مراثد كنكُ إذا وحمكُ أول بانقشم من أرض انهند بطله زاهداً)»، وذيَّله بهذه الشروح: «أول: أُتِيَ به؛ يريد الفواكه، زاهداً: يريد طريًّا. وثمار الخريف تسمَّى القشم عند حمير» (الإكليل: ٨/ ١٥٩). فإذا أضفنا إلى ذلك استعمال الكاف ضميراً للمتكلم (في: كنكُ و: وحمكُ) وإبدال اللام نوناً في أداة التعريف (في: القشم و:الهند) فإنه يُقرأ هكذا: «أنا فلانة كنتُ إذا وحمتُ أُتِيَ [لي] بالفاكهة من أرض الهند بطلِّها طريَّةً»(٤٥).

ب- وروى الرّازي الخبر التالي: «سمعتُ وهباً يقول: قالت أمّي: رأيكُ بنحلم

(٤٤) انظر هذه الأخبار وبعضها مكرَّر في: الإكليل: ٨/ ١٢٦، ١٢٨-١٢٩، ١٤٦، ١٤٩، ٢٠٧.

(٤٥) لحق بالنصِّ تحريف وتصحيف في الطبعات الثلاث من الإكليل، انظره مصحَّحاً مشروحاً في: الصلوي، إبراهيم، مساند حميرية: ص٨٤-٨٦، وانظر دلالة «القشم» في: Ghul, 221.

كولدك ابن من طيب»، وعلّق بقوله: «والطيب بالحميرية: الذّهب، وكانت أم وهب بن منبه من ولد الخليل الحميري، وكانت تتكلم بالحميرية» (تاريخ صنعاء: ص٤٠٩)(٤٦) فتكون قراءته: «رأيتُ بالحلم كأني ولدتُ ابناً من ذهب».

ج - وروى الهمداني أنه «وُجِد في قبرٍ من مقابر الملوك باليمن لوح مكتوب فيه بالمسند: (أنا ديباجة بنت نَوف بن ذي شقر بن ذي مراثد، بهلكُ لأدمي يشأم لى مد طحين بمد بحري، فدو أسيه لي، فاعتفدكُ بقبري، فمن سمع بي فليحزن لي، وأيما أنثة لبست حليي ليكن موتُها حنج موتي)»، وعقَّب عليه بقوله: «معنى ذلك: أمرتُ عبدي يشتري لي في حطمة وقعت مُدَّ طحينٍ بمُدِّ لؤلؤ، فلمْ يجدْ، فاعتفدتْ أي: أقفلتْ عليها بابها حتى ماتت، ثم دعتْ على كل امرأةٍ تلبس حليها بعدها أن يكون موتها مثلَ موتِها» (الإكليل: ٨/ ١٣٥).

وتفسير الهمداني صحيح، لكنّ النّص بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الشرح لأنه ليس واضحاً لغير المتخصصين، فالفعل «بهل» من اللغة الجعزية ومعناه «قال» غير أنه لمْ يرد في النقوش، والاسم «أدم» ورد اسم جمع في النقوش للدلالة على الأتباع أو الموالي، والفعل المضارع «يشأم: يشتري» ورد بالمعنى نفسه في النقوش، والاسم «بحري: لؤلؤ» من الجعزية، وأداة النفي «دو: لمْ» وردت في النقوش وما تزال حيّةً في بعض مناطق اليمن، والفعل «أسي: وَجَدَ» وكذلك الاسم «حنج: مِثل» معروفان بالدلالة نفسها في النقوش. فيكون المعنى الأقرب للنّص هكذا «أنا فلانة... قلتُ لخادمي يشتري لي مُدَّ طحينٍ بمُدِّ لؤلؤٍ، فلمْ يجده لي، فاعتفدتُ حتى موتي، فمن سمع بي فليحزن لأجلي، وأيّما أنثى لبست حليي فليكن موتها مثلَ موتي»(٤٧).

---

(٤٦) ورد فيه بروايتين فيهما تصحيف وتحريف، ولكنه ورد بالقراءة الصحيحة في: Rabin, p.48، و: نامي: ص ٤٧، و: Ghul, p.285، و: الصلوي: ص٨٧-٨٨.

(٤٧) النّص حافلٌ بالتصحيف والتحريف في طبعتي فارس (ص ١٣٥) والأكوع (ص ٢٠٨- =

د – وروى الهمداني خبرين أتبعهما بمَثَلَيْن حميريين:

أحدهما: خبر رجلٍ خطب ابنة عمّه وكانت له كارهة، فطلبت منه أنْ يُجريَ الماءَ من مأخذٍ إلى قصرها لظنّها أنه لن يستطيعه، ولكنه فعل، فلمّا وصل الماءُ قتلتْ نفسها، قال الهمداني: «وفي أمثال الحميري:(دو هل قيلاً ذي دو جرَّ غَيْلاً)، أي: ليس بملكٍ مَن لمْ يقدر على فتق العيون وجرِّ الغيول» (الإكليل: ٢/ ٣١٧). والألفاظ التي تحتاج شرحاً في النّص هي: أداة النّفي «دو»، والاسم الموصول «ذي» الذي يسمّيه النّحاةُ «ذو الطائيّة»، وفعل الكون «هل» المعروف في الجعزيّة وهو مستعمل اليوم في اليمن، والاسم «الغيل: مجرى الماء» الذي يرد في النقوش وهو مستعمل في الفصحى وعامية اليمن. فيكون نصُّ المثل بالفصحى: «لا يكون قيلاً مَن لا يجرُّ غَيْلاً»(٤٨).

والخبر الآخر عن الشاعر علقمة ذي جدن، قال الهمداني: «وفيه جرى المثلُ بالحميري، قال: باع ذو جدن ماله، قال: ويل ذي دو لهُ، أي: ويل الذي ليس له مالٌ يبيعه» (الإكليل:٢/ ٢٧٦)(٤٩) ، ولا شكّ أن كلمتي «مال يبيعه» مزيدتان للإيضاح.

هـ – وروى نشوان الحميري مثلاً آخر، قال: «المُعابية: المكابرة والمفاخرة، وكذلك العِباب، ومن أمثال حمير: (لولا امعِباب لمْ تنفقْ امكِعاب)»(منتخبات من شمس العلوم: ٦٨). فيكون معنى المثل: «لولا المكابرة والمفاخرة لما تزوّجتْ الفتيات».

و – وروى الملك الأشرف الرسولي أنّ أحدهم سمع يمنيّاً يقول لآخر:

= ٢٠٩)، وانظر القراءة الصحيحة مع شرحٍ وافٍ في: الصلوي: ص٨١-٨٤.

(٤٨) انظر: الصلوي: ص ٨٦-٨٧.

(٤٩) ورد الجار والمجرور «له» وأداة النفي «دو» في الكتاب كأنهما كلمة واحدة هكذا: دوله!

«خشنا الرجل يخسم معنا سو سئمنا، فدو أسيناه، أي: التمَسوا الرجل يأكل معهم إلى أنْ سئموا، فلمْ يجدوه» (كتاب التبصرة - وهو مخطوط -: ٤١). غير أنّ المعنى المطابق للنّص هو: «التمسنا الرّجلَ يأكلُ معنا حتى سئمنا، فما وجدناه »، أما الألفاظ الغريبة هنا فهي فعل «خشَّ: التمس، بحث عن» الذي يرد بصيغة «خشَشَ» في الجعزية، وفعل «يخسم: يأكل» وهو مايزال مستعملاً في بعض مناطق اليمن، و الأداة «سو: حتى، إلى» المستعملة اليوم بصيغة «سي» في إحدى المناطق اليمنيّة(٥٠).

فهذه المجموعة من النصوص «لمْ تُنقلْ من ألواحٍ مكتوبة بخط المسند، وإنما وصلت إليهم شفاهاً عن طريق الرِّواية، فدوّنوها كما سمعوها»(٥١)، والدليل على ذلك أنه لمْ يُعثر – فيما أعلم – على شيءٍ من هذه الألواح أو المساند المزعومة بالرغم من كثرة التنقيبات الأثرية في طول البلاد وعرضها، وإنما دعاهم إلى هذا الزّعم رغبتهم في إضفاء هالةٍ من الجلال والفخامة على هذه النصوص التي لا تبلغ مستوى سابقتها في الفصاحة بسبب تأثر أصحابها بدرجةٍ متفاوتة بلهجاتهم ممثلاً في احتوائها على اثنتين من الظواهر اللغوية والنحوية المنسوبة إلى حمير أو إلى أهل اليمن، وهما: إبدال اللام في أداة التعريف نوناً (انقشم و: انهند و: انحلم) أو ميماً (امعباب و: امكعاب)، واستعمال الكاف عوضاً عن التاء ضميراً متصلاً للمتكلم (كنكُ و: وحمكُ و: رأيكُ و: ولدكُ و«بهلكُ و: اعتفدكُ»، أضف إلى ذلك أنّ بعض ألفاظها معروف في النقوش أو في العاميّة اليمنيّة أو في كلتيهما معاً. وإذا كانت المصادر التي روتْ

(٥٠) انظر التفصيل في: الصلوي: ص ٨٨ – ٩٠.

(٥١) الصلوي ص٩٠.

هذه النّصوص المكتوبة – كما زعموا – باللغة الحميرية لمْ تحدَّد لها تاريخاً فإنّ أحدها – وهو القول المنسوب إلى أمّ وهب بن منبه – يعود إلى أوائل العصر الأموي لأنَّ وفاة وهب كانت – على الأرجح – سنة ١٠٦هـ، ومن المؤكد أنها جميعها لا تتجاوز فجر الإسلام وأواخر العصر الجاهلي، والدليل على ذلك جملة أمور؛ منها: أننا لانعرف مثيلاً لهذه المساند المزعومة في نقوش ما قبل الإسلام بنوعيها: نقوش المسند النّصبيّة وكتابات الزَّبور الخشبيّة، وأنّ بعض أسماء الأعلام فيها (شمعة و: ديباجة) إسلامية لمْ تردْ في النقوش البتة، وأنّ بعض الظواهر اللغوية فيها مخالفة لتلك التي في النقوش، بل هي خاصة بالفصحى، كورود الاسم أحياناً مقترناً بأداة التعريف «ال» (الرَّجُل) أو منوَّناً (قتيلاً و: غيلاً) واستعمال (أيّما) وورود أداة الشرط (لولا)، مما يعني أنّ ورود ظواهر لغوية أو نحويّة خاصة بأهل اليمن في هذه النّصوص لا يكفي لإدخالها في إطار النقوش، ولا لتسميتها «الحميرية» استناداً إلى الافتراض أنّ لغة النقوش أصبحت حميريةً في مرحلتها المتأخّرة نتيجة سقوط الدّولة السبئية وقيام الدّولة الحميرية، لأنّ الواقع اللغوي يدحض ذلك دحضاً تاماً، فإذا كنّا نفترض أنّ لغة الخطاب عند الحميرين لم تكن السبئيّة فالثابت أنهم «تابعوا استعمال السبئيّة في الكتابة لما أضفاه عليها قِدَمُها من جلالٍ وهيبة»(٥٢)، فظلَّتْ لغة للنقوش حتى آخر العهد بها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

فما هي – إذن – تلك الحميرية التي يقول الهمداني إنّها كانت ما تزال حيّةً في زمنه؟ إذ عقد في كتابه «صفة جزيرة العرب» فصلاً لوصف «لغات أهل الجزيرة

(٥٢) دون إنكار لتأثير لغة حمير في نقوش هذه المرحلة، انظر: بيستون، قواعد النقوش العربية الجنوبية: ص٦. ويذكر بيستون أمثلة أخرى لعدم التطابق بين لغة الخطاب ولغة الكتابة، فالأنباط والتدمريّون كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، انظر: Beeston 2005, p.79.

[العربية]»، استعمل فيه إلى جانب هذا المصطلح مصطلحات أخرى يصعب فهم دلالاتها أحياناً، فقال: «مَهْرَة: غُتْمٌ يشاكلون العجم ...، وسافلة المعافر: غُتْم وعاليتها أمثل، وهمدان: مَنْ كان في سراتها من حاشد خلّيطى من فصيحٍ مثل عُذَر... وغُتْم مثل بعض قُدَم...، وحقل قتاب فإلى ذمار: الحميرية القُحَّة المتعقِّدة، ... وشبام أقيان والمصانع وتُخلى: حميرية مَحْضَة،... وسرو حمير وجَعدة ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيءٌ من التَّحمير،... وصنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونُبَذٌ من كلام حمير،... وحَراز والأَخروج وشُمّ: خليطى من متوسط بين الفصاحة واللُّكْنَة وبينها ما هو أدخل في الحميرية المتعقدة ... »(٥٣).

ويستنتج (رابين Rabin) من هذا الفصل الذي يصوِّر الواقع اللغوي في جنوبي الجزيرة العربية أوائل القرن الرابع الهجري «أنّ العربية الفصيحة - القريبة من لغة بدو وسط الجزيرة - كانت لغة الخطاب في المناطق المرتفعة شرقي السَّراة وفي مناطق أخرى قليلة وخاصةً أقصى الجنوب»، ثمّ يوضّح مصطلحات الهمداني فيرى أنّ «خليطى» هي المختلطة بالحميرية، وأنّ «الغتم» تعني عدم مشابهتها الحميرية، وأنّ «التحمير» هو ظهور آثار واضحة من الحميرية في إحدى اللهجات، وأنّ «التعقد» يدلّ على التأثر في الإيقاع والأداء بالحميرية، وأنّ «اللكنة» تشير إلى عدم الفصاحة، ويلاحظ - بعد أنْ ينقل ما ذكره الهمداني - أنّ معظم البقاع التي يتكلم أهلها بالحميرية تقع خارج المنطقة التي وصف الكتّاب الكلاسيكيون أهلها بأنهم حميريون، ويعلل ذلك بأنّ أقواماً كثيرين كانوا ينتمون إلى مجموعات شتّى أصبحوا يُسمَّون حميريين بعد قيام السلطة الحميرية(٥٤). ويرى المستشرق «فك» - بحقٍّ - أنّ

---

(٥٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب: ص ١٣٤-١٣٦. ولمْ يبيِّن المحقِّق الأول للكتاب وهو: D.H.Müller، ولا المحقق الثاني وهو الأكوع دلالة تلك المصطلحات.

(٥٤) انظر: Rabin, p.43–47، وقارن بـ: Al-Selwi, p.5.

الهمداني أراد أن يبيّن كيف «اختلطت الألسنة الأصلية هناك بعربية الشمال [أي الفصحى] شتى وجوه الاختلاط، إذ لم يكن قد قضى عليها الدّاخلون من عرب الشمال تماماً...، وكان الهمداني يقيس كل لهجة بمقاييس النّحو، ويحكم عليها من حيث الفصاحة والغتمة من وجهة نظر واحدة هي مطابقتها أو مخالفتها للقواعد، وهو ينظر بعد هذا هل هي معقدة صعبة الفهم على من خرج عن محيطها؟»(٥٥)، وينبغي أن يُفهم من عبارة «فك» الأخيرة أنّ المعيار الآخر عند الهمدانيّ – إضافة إلى مقاييس النّحو – هو احتواؤها الظواهر اللغوية والنحوية التي بيّناها.

غير أنّ المقارنة بين ما ورد في أجزاء «الإكليل» – وخاصة باب القبوريات – وما جاء في «صفة الجزيرة» تظهر أنّ مصطلح «الحميرية القحّة المتعقّدة» أو «الحميرية المحضة» يُرادُ به هنا اللهجة أو اللهجات العربية الجنوبية القديمة التي توارثها اليمنيون طوال القرون السابقة للإسلام، مما يعني أنّها كانت ما تزال مستعملةً في عصره – أي في القرن الرابع الهجري – لدى بعض القبائل «في موضعٍ يُقال له حِمير من غربيّ صنعاء، وهم أهل غتمةٍ ولُكنةٍ في الكلام الحميري، ولذلك يقول أهل صنعاء إذا رأوا غتماً من أغتام بادية صنعاء: هو حميري؛ يريدون من حمير بن الغوث، لا أنهم يريدون حمير الأكبر ولا حمير بن سبأ الأصغر فهم يعلمون أنّ فيهم الفصاحة والشِّعر، وإلى حمير بن الغوث تنسب أكثر هذه اللغة الحميرية»(٥٦)، ويُذكّرنا هذا بقول المقدسي (ت ٣٧٥هـ) – الذي أقام في اليمن حولاً كاملاً – إنَّ «بطرف الحميري قبيلة من العرب لا يمكن فهمُ كلامهم» ويُحدِّدُ «الحميري» بأنه «بلد قحطان بين زبيد وصنعاء»(٥٧). أمّا اللهجات الأخرى التي يصفها الهمداني فبعضها يمثل

(٥٥) فك، العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: ص ١٦١–١٦٣.
(٥٦) الإكليل: ٢/ ٢٣٢–٢٣٣.
(٥٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ٩٦.

الفصحى المحضة مما يجعل أصحابها فصحاء، وبعضها الآخر يتضمّن ظواهر لغوية ونحوية من اللهجات القديمة أو المعاصرة بدرجاتٍ متفاوتة، ولذا يصف أصحابها حيناً بأنهم «فصحاء إلا في مثل قولهم: أمْ رَجُل و قيِّدْ بعيراك ورأيتُ أخواك»، وحيناً آخر بأنهم «ليسوا بفصحاء، وفي كلامهم شيء من التحمير، ويجُرُّون في كلامهم ويحذفون فيقولون: يابن معَم في: يابنَ العمِّ، وسِمَعْ في: اسْمعْ»، ويتوسّط حيناً ثالثاً فيقول: إنّ لغة القوم «خليطى من متوسط بين الفصاحة واللكنة» أو إنها «عربيٌّ يخلط حميريةً»، بل إنّه يجعل الفصاحة نفسها درجات، فيعدّد مجموعة من القبائل يصف لغتها بالفصاحة ثمّ يقول:

«غير أنّ أسفل سروات هذه القبائل... دون أعاليها في الفصاحة»[٥٨]. ولعلّ ذلك يوضح أقوال أبي عمرو بن العلاء وسواه من اللغويين المتقدمين الذين أنكروا عربية لغات اليمن القديم لأنهم يجهلون بعضها ويجدون صعوبة في فهم بعضها الآخر؛ فأغلب الظنّ أنّ المراد بـ «لسان حمير» لغة النقوش أو «الحميرية المحضة» أو كلتاهما معاً؛ و بـ «لسان أقاصي اليمن» لهجات مناطق المهرة وسوقطرة وما جاورهما؛ وبـ «عربيتهم» اللهجات العربية الجنوبية المعاصرة لهم لاحتوائها – كما رأينا – على ظواهر لغوية ونحوية وألفاظ خاصة باليمن القديم.

وهكذا ينجلي الغموض واللبس اللذان ما يزالان يكتنفان مصطلح «الحميرية» أو «لغة حمير» حتى اليوم، فمردّ ذلك – فيما أرى – إلى استعماله تارةً مصطلحاً تاريخياً جغرافيّاً بالربط -قديماً وحديثاً – بينه وبين الدولة الحميرية التي ترجع أقدم أخبارها إلى القرن الأول قبل الميلاد، ولعلّ ذلك هو الذي أعطى قصيدة نشوان الحميريّ في تاريخ اليمن القديم تسمية «القصيدة

(٥٨) صفة الجزيرة: ص ١٣٤-١٣٦.

الحميريّـة» مـع أنهـا منظومـة - كغيرهـا مـن قـصائد الـشِّعر العـربيّ - بالعربيـة الفصحى، واستعماله تارةً أخرى مصطلحاً لغويّـاً دون تمييـز - غالبـاً - بـين لغـة النقـوش واللهجـات الجنوبيـة واللهجـات الـشمالية أي لهجـات الفـصحى واللهجات المختلطة، فتصبح كلها ضرباً واحداً يسمّونه «الحِمْيَرِيّة» أو «اللسان الحميري» أو «زُبُر حِمْيَر» أو «مساند اليمن» أو«لغة اليمن» أو غير ذلك.

فأما المتقدمون فقد كان لفظا «اليمن» و «حِمْيَر» عندهم - غالبـاً - مترادفـين لأنّ أخبار الدولة الحميرية - التي شمل سلطانها اليمن القديم كله - طغت على أخبـار الـدول التـي سـبقتها، فحـلَّ لفـظ «الحمـيريّ» في كثـيرٍ مـن مروياتهم وكتاباتهم محلّ لفظ «اليمانيّ»، أو كما يقول البلاغيـون: استعملوا الجزء وأرادوا الكلّ، وإنْ كانوا - لغويين ومؤرّخين - يوسعون دلالة مـصطلح «أهـل الـيمن» أحياناً ليشمل قبائل كانت مواطنها في العصر الجاهلي في شـمالي الجزيـرة العربيـة لأنها - في اعتقادهم - مهاجرة من مواطنها الأصلية في اليمن. وأمّا المستشرقون الذين اكتشفوا نقوش اليمن القديم، وشرعوا في قراءة حروفهـا وفـكّ رموزهـا فقـد سـمّوها أوّل الأمـر «الحميريّـة» تـارةً (Gesenius 1841, Rödiger 1841, Osiander 1865, Halévy 1873)، و«الـسبئيّة» تـارة أخـرى (Glaser 1886, D.H.Müller 1885, Haléy 1875)[٥٩]، ثم جمع القسم الرابع من مدوَّنة النقـوش الساميّة الخـاص بهـذه النقـوش CIH , Pars quarta - وهـو في أربعـة مجلـدات - التسميتين معاً، فحمل بدءاً بالمجلد الأول منه الـذي صـدر عـام ١٨٨٩ عنـوان «النقوش الحميرية والسبئية». ومن الواضح أنّ الاصطلاح هنا لـيس لغويّـاً بـل هو جغرافيٌّ تاريخيٌّ يُراد به نسبة تلك النقوش والمكتشفات الأثريـة الأخـرى إلى

(٥٩) ما ذكرناه هنا أمثلة مما نشروه يُراد بها التوضيح فحسب.

دولـة سبأ أو دولـة حِمْير اللتين وردت أخبارهما في «العهـد القـديم» والقـرآن الكريم وفي المصادر الكلاسيكية ثم في كتب التراث العربي، والدليل على ذلـك أنّ المستشرقين ما لبثوا أنْ صنّفوا جميع النقوش العربية القديمة المكتشفة في المشرق العربيّ تصنيفاً لغويّاً فجعلوها قسمين كبيرين؛ أحدهما لهذه النقوش سمّوه - كما ذكرنا - «العربية الجنوبية Old South Arabic»، والآخر للنقوش الأقرب - عندهم - إلى الفصحى سمّوه «العربية الشمالية Old North Arabic».
ثم اكتشف نقش طويل على صخرةٍ في وادي قانية الذي يبعد زهاء ٢٥٠ كم عن صنعاء، وهو «منقوش بخط المسند، إلا أنّ معظم مفرداته بل وتراكيبه غير معهودة لدى دارسي النقوش اليمنية القديمة»، وافترض مكتشفه أنه نصٌّ شعريٌّ فسمّاه «القصيدة الحميرية»(٦٠)، وأدّى هذا التساهل في استعمال المصطلح هنا إلى استمرار عدم التمييز بين «الحميرية» ولغة النقوش، ومما يزيد الطين بِلَّة الخلط بينهما وبين لهجات المهرة وسوقطرة كالشحرية والجبالية والسوقطرية وسواها في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية.

والخلاصة أنّ هذا العرض الموجز لما ورد في المصادر عن «لسان حمير» أو «لغة حمير» أو «لغة اليمن» ينتهي بنا إلى مجموعة من النتائج:

أولاها: أنّ النصوص التي وصفها الهمداني وسواه بأنّها «حميريَّة» تبيِّن بياناً لا لبس فيه أنّ الحميرية لهجة نشأت من اختلاط الفصحى باللهجات العربية الجنوبية بعد أنْ أخذت الفصحى بالانتشار في اليمن القديم حتى كانت لها

---

(٦٠) عبد الله، يوسف، نقش القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس . وقد تمثل من حيث لغتها - مرحلةً سابقة لأنّ تاريخها لا يتجاوز - في رأي ناشره - القرن الثالث الميلادي، في حين أنّ النصوص الحميرية - كما ذكرنا - أحدث منها زمناً.

الغلبة قبيل ظهور الإسلام، فهي إذن لهجة مختلطة تغلب عليها الفصحى وإنْ تفاوتت النصوص المصوغة بها في مستوى فصاحتها تبعاً لِكَمِّ الألفاظ اليمنيّة فيها ولمدى تأثرها بالظواهر الصوتية واللغوية والنحوية في لهجات الخطاب آنذاك(٦١)، وقد كانت حيّةً في زمن الهمداني أي في القرن الرابع الهجري، بل إنّها ماتزال حيةً إلى اليوم كما نسمعها في لهجة اليمنيين المتعلمين في مناطق شتى عندما يُحدِّث بعضهم بعضاً. ولعلّ لهجة منطقة «حِمير» أو «الحِميري» غربي صنعاء هي الوحيدة - فيما يبدو - التي لم تتأثَّر بالفصحى، ولكن الهمداني والمقدسي اللذين ذكراها لمْ يُقدِّما نماذج توضحها، واكتفيا بوصفها بـ «الحميرية المحضة» أو «الحميرية القحّة المتعقدة»، ولذا ينبغي التمييز بين هذه اللهجة الحميرية المحكيّة التي نجهلها والحميرية المكتوبة التي أوردنا نصوصها. كما ينبغي عدم الخلط بين «الحميريّة» كما عرضناها هنا و مصطلح القدامى «زُبُر حمير» المرادف لمصطلحنا الجديد «كتابات الزبور».

والثانية: أنّ لغة النقوش - بنوعيها - كانت لغة الكتابة فحسب في جنوبيّ الجزيرة العربية، وظلت مستعملةً حتى عهدٍ قريب من ظهور الإسلام، أمّا لغة الخطاب فلا نعرف عنها شيئاً لأنّ ما وصل إلينا من روايات عن اللهجات لا يكاد يتجاوز فجر الإسلام، ما عدا لهجات منطقة المهرة التي وصف الهمداني أصحابها بأنهم «غتم يشاكلون العجم»، فما تزال إلى اليوم غريبةً على أسماع اليمنيين.

والثالثة: أنّ الزَّعم أنّ «الحميريَّةَ» أصبحت لغة النقوش في عهد الدّولة

(٦١) لا يبعد ما ذكرناه هنا عمّا سبق إليه رابين بقوله: هي «لهجة عربية شمالية ذات طابع يمنيّ، تتضمن ظواهر لغويّة قديمة، وفيها ألفاظ كثيرة مما يرد في النقوش العربية الجنوبية»: Rabin, p.42, 49، وخليل نامي بقوله: إنّ الحميريّة «نشأت بعد أن فرضت اللغة العربية سيادتها...، ونصوصها المروية بعيدة كل البعد عن لغات النقوش...»: دراسات، ص٤٥ - ٥٢).

الحميرية باطل، لأنّ السبئيَّة ظلت لغة للنقوش - بعد اختفاء المعينيَّة والقتبانيَّة والحضرميَّة - إلى آخر عهدنا بها في منتصف القرن السادس الميلادي.

والرابعة: أنّ الاستمرار في استعمال مصطلح «الحميريَّة» - بكلتا دلالتيه التاريخيَّة واللغوية- كما يفعل بعض الباحثين وصفاً للغة النقوش يضلل غير المتخصصين، فضلاً على مخالفته المنهج العلميّ، فاستعماله بالدلالة التاريخيّة غير صحيح لأنّ العهد الحميري لا يشمل إلا الحقبة المتأخرة من تاريخ اليمن القديم، واستعماله بالدلالة اللغوية مضللٌ لأنه يعني إضافة لهجةٍ خامسة لا وجود لها إلى لهجات النقوش الأربع المعروفة.

ولعلّنا نفاجأ يوماً بخبر العثور على الجزء التاسع المفقود من «الإكليل» «الذي أفرده الهمداني للكلام «في أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند»، ليجعل - بما فيه من نصوصٍ لغوية وشروح وروايات - معرفتنا للسان الحميري أكثر دقةً وتفصيلاً.

الخلاصة:

وهكذا يتبين لنا أنّ تاريخ العربية في جنوبيّ الجزيرة العربية يرجع إلى القرن السابع أو الثامن ق.م، وأنّ اللغة المكتوبة هناك وصلت إلينا في نموذجين لغويين مختلفين في مرحلتين زمنيتين متعاقبتين:

فأما النموذج الأوّل الذي تصوّره النقوش- باللهجات السبئيّة والمعينيّة والقتبانيّة والحضرميّة- فقد وصل إلينا في شكلين، أحدهما: نقوش الحكام والأقيال وذوي الألقاب والرُّتب؛ وهي محفورة على الحجر أو المعدن بخط «المُسْند» الذي يسمّيه المستشرقون الخط النصُبيّ التذكاريّ: Monumental، والآخر: كتابات للعامّة تشمل الرسائل الإخوانية والمعاملات التجاريّة والماليّة سمّاها المتقدمون «الزُّبُر»،

وهي مكتوبة بأقلام خاصة على سعف النخل وأعواد الخشب بخطٍّ ليّن سريع يسمّيه المستشرقون « Minuscule /Cursive». واللغة في كليهما عربية في أصواتها (فالتطابق تام في النظام الصّوتيّ، وإنْ كانت لغة النقوش تزيد على الفصحى صوتاً واحداً يُعبِّر عنه حرفُ السين الثالثة)، مماثلة أو مشابهة للفصحى في كثير من الظواهر الصرفية والنّحوية والأسلوبية، وإنْ كانت بعض أوجه الشَّبه بينهما تخفى أحياناً بسبب خلوّ خط النقوش من حروف الصّوائت، وقلة الشواهد أو ندرتها في بعض الظواهر. ولكن ذلك لا يعني تطابقاً تاماً بينها وبين الفصحى.

وأما النموذج الثاني – وهو الأحدث زمناً – فتمثله النصوص الحميرية التي يرجع تأليفها -كما ذكرنا آنفاً – إلى عهدٍ تالٍ لنشأة الفصحى وتكوينها، ولغتها مختلطة تغلب عليها الفصحى وإنْ تفاوتت في مستوى فصاحتها.

ولم يذكر المتقدمون من اللهجات أو لغة الخطاب سوى مثالين اثنين: أولهما خاص بمنطقة «المهرة» في أقصى الجنوب، والآخر خاص بمنطقة «الحِمْيَري» غربي صنعاء دون أنْ يُقدّموا نصوصاً موضحة لهما. ويبدو أن تلك اللهجات استطاعت صدّ الفصحى التي كانت تنتشر في جنوب الجزيرة العربية رويداً رويداً حتى كانت لها الغلبة هناك قبيل مجيء الإسلام. وليس ذلك غريباً فقد شهدنا هذه الظاهرة بعد ظهور الإسلام وانتشاره حاملاً معه الفصحى لغة القرآن الكريم إلى شعوبٍ وأممٍ انضوت تحت لوائه ونطقت بلسانه العربيّ، إذْ تمكنت جزر لغوية متعددة يتحدّث قاطنوها الآرامية أو القبطية أو الأمازيغية أو سواها في مناطق شتى من الدولة العربية الإسلامية من البقاء بمنأى عن التعريب زمناً طويلاً(٦٢). ■

* * *

(٦٢) انظر التفصيل في: علم اللغة العربية لمحمود فهمي حجازي: ص ٢٣٩ – ٢٨٨.

المصادر والمراجع

١- بالعربيّة:

- ابن جنِّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص: تحقيق محمَّد علي النجّار، القاهرة ١٩٥٢-١٩٥٦.
- ابن دريد، أبو بكر، جمهرة اللغة: تحقيق فريتز كرنكو، حيدر أباد ١٣٤٤-١٣٥١هـ.
- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب، القلب والإبدال: تحقيق أوجست هفنر، بيروت ١٩٠٣.
- ابن سلام الجمحي، محمّد، طبقات فحول الشُّعراء: تحقيق محمود محمَّد شاكر، القاهرة ١٩٧٤.
- ابن عبد ربّه، أحمد، العقد الفريد: تحقيق أحمد أمين وآخرين، القاهرة ١٩٦٩.
- ابن عقيل، بهاء الدّين عبد الله، شرح الألفية: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط١٤، القاهرة ١٩٦٤.
- ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب: بيروت، د.ت.
- ابن هشام، جمال الدّين عبد الله، مغني اللبيب: تحقيق مازن المبارك ومحمَّد علي حمد الله، دمشق ١٩٦٤.
- أبو الطيِّب اللغوي، عبد الواحد، الإبدال: تحقيق عزّ الدين التنوخي، دمشق ١٩٦٠.
- الإرياني، مطهّر علي: المعجم اليمنيّ في اللغة والتراث، حول مفردات خاصة من اللهجات اليمنيّة، دمشق ١٩٩٦.
- الأكوع، إسماعيل بن علي، الأَفعول، في: الإكليل (العدد ٢)، صنعاء ١٩٨٠، ص٩-٣٠.
- الأنصاري، أبو زيد، النّوادر في اللغة: تحقيق سعيد الخوري الشرتوني، بيروت ١٨٩٤.

- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية: ط٤، القاهرة ١٩٧٣.
- بافقيه، محمَّد عبد القادر، في العربية السعيدة: ج٢ بيروت ١٩٩٣.
- البلاذري، أحمد، أنساب الأشراف، ج٥ تحقيق ***S.D.Goitein***، القدس.
- بيستون، ألفرد، قواعد النقوش العربية الجنوبية: ترجمة رفعت هزيم، الأردن ١٩٩٥.
- بيستون، أ. ج.ريكمانز، م.الغول، و.موللر، المعجم السبئي: بيروت ١٩٨٢.
- تيمور، أحمد، لهجات العرب:القاهرة ١٩٧٣.
- ثعلب، أبو العباس، مجالس ثعلب: تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٠.
- الرّاجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية: القاهرة ١٩٦٩.
- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة: تحقيق محمَّد أحمد جاد المولى وآخرين، القاهرة ١٩٧٧.
- الصلوي، إبراهيم، مساند حميريّة في مصادر التراث العربي، في: الإكليل (العددان ٢١،٢٠) صنعاء ١٩٩٠ ص ٨٠-٩٢.
- عبد التوّاب، رمضان، فصول في فقه العربية: ط٢، القاهرة ١٩٨٠.
- عبد الله، يوسف، نقش القصيدة الحميريّة أو ترنيمة الشمس، في: ريدان ٥، ١٩٨٨، ص٨١- ١٠٠.
- علي، جواد، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: بيروت ١٩٦٨-١٩٧١.
- الفرّاء، أبو زكريا، معاني القرآن: تحقيق محمَّد علي النجّار وآخرين، القاهرة ١٩٥٥-١٩٧٢.
- فك، يوهان، العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: ترجمة رمضان عبد التوّاب، القاهرة ١٩٨٠.
- المالقي، أحمد بن عبد النور، رصف المباني في شرح حروف المعاني: تحقيق أحمد الخرّاط، دمشق ١٩٧٥.

- المقدسي، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، ط٢ لايدن ١٩٠٦.
- نامي، خليل يحيى، دراسات في اللغة العربيّة: القاهرة ١٩٧٤.
- نشوان بن سعيد الحميري، منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق عظيم الدين أحمد، لايدن ١٩١٦.
- الهمداني، أبو محمَّد الحسن ابن الحائك، الإكليل: ج٢ تحقيق محمَّد بن علي الأكوع، بغداد ١٩٨٠، ج٨ تحقيق نبيه أمين فارس، بيروت ١٩٤٠، ج١٠ تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٨-١٩٣٦.
- الهمداني، أبو محمَّد الحسن، صفة جزيرة العرب، تحقيق ***D.H.Müller***، ليدن ١٨٩١.

٢- باللغات الأجنبيّة:

- ***Beeston , A.F.L.: Apologia for "Sayhadic", in:M.C.A. Macdonald and C.S. Phillips (eds.): A.F.L. Beeston at the Arabian Seminar. Oxford 2005 , pp. 79–80.***
- ***Dillmann, A.: Ethiopic Grammar. translated by J.Crichton. London 1907, reprinted 1974.***
- ***Ghul, M.A.: Early South Arabian Languages and Classical Arabic Sources Yarmuk University, Jordan 1993.***
- ***Nőldeke, Th: Beiträge und neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1904–1910, (Neud., Amsterdam 1982).***
- ***Rabin, C.: Ancient West-Arabian, London 1951.***
- ***Al-Selwi, I.: Jemenitische Wőrter in den Werken von al-Hamdâni und Našwân und ihre Parallelen in den semitischen Sprachen , Berlin 1987.***

❋ ❋ ❋